الفصل الخامس

التربية في البيت

قال سليمان الحكيم من أحب ابنه أدّبه أدبًا شديدًا. ولقد رأيت أن افتتح هذا الفصل بقول الحكيم لتكون كلماته عبره ومثالًا لقوم رزقهم الله أولادًا، وائتمنهم عليهم ليكبروا في ظل عنايتهم، حتى إذا جاء اليوم الذي يحتاج فيه الوطن إلى رجال يردون تلك الأمانة الصغيرة مكبرة مضاعفة. ولكنك بدلا من ذلك تراهم يقومون بالأمر علي عكس ما يجب أن يقوموا به، فإذا طالبهم الوطن بوديعة الله عندهم اتحفوه بعقول الصبيان الصغار في أجسام الرجال الكبار، وقالوا: هؤلاء يا وطن أبناؤك.

ولقد تقدم لنا القول في أحد الفصول السابقة أن التربية تبدأ مع الإنسان منذ ولادته طفلاً رضيعًا، ونحن لم نأتِ بتلك الكلمات علي سبيل المجاز، بل هي حقيقة لا مراء فيها ولا خلاف، فإن القابلة عند ما يستقبل الولد وهو يستهل بالبكاء، فإنما هي تبدأ معه فعل التربية العظيم، ولقد سمعت مرة إحدي الأمهات تقول عن ابنتها وقد جاوزت السنتين: "أنني أدعها الآن تفعل ما تشاء، فمتى كبرت ربيتها" هكذا بالحرف الواحد، فمتى تبدئين بتربيتها أيتها الأم؟

إذا تُرك الولد وهو في طفولته يفعل كل ما يمر بخاطره الضعيف، فأنه يصبح من الصعب أن تجعله إذا كبر يفعل ما تريده أنت أيها الأب، فيصبح قيامكم بالواجب الذي تفرضه عليك الطبيعة من أصعب الأمور وأعسرها؛ لأن فعل التربية يستوجب أمرين: أولهما السلطة، والثاني الانقياد والخضوع. فالسلطة

صفة يجب أن تكون للأب والمربي، والانقياد أمر يجب أن يكون من صفات الأولاد، ومتى ضاع أحد هذين الشرطين يفقد الآخر بضياعه؛ لأن الأب إذا لم يكن ذا سلطة علي الولد لم يكن الولد ذا خضوع وانقياد له، وذلك أمر طبيعي لا يحتاج إلى إثبات.

ومع ذلك فإن شئت شاهدًا علي صحة هذا المبدأ فإنني أورد لك حادثا من ألف مما يجري في كل يوم، بل في كل ساعة في أكثر منازل الشرقيين ومنزهاتهم.

بل لست بمورد علي ذلك شاهدًا، لكنني أسأل الآباء والأمهات: هل تركوا أولادهم يفعلون مرة ما يشاؤن جريا مع هوي النفس، ولم يضطرهم ذلك إلى تكديرهم مرارًا لتقويم العوج الذي احدثه ذلك التراخي لمرة واحدة؟

ولنعد الآن إلى ما كنا في صدده من الكلام علي شرطيّ التربية الأوليّن، ونريد بهما السلطان، بالإضافة إلى الوالدين والمربين، والطاعة، بالإضافة إلى الأولاد، فنقول أنه لا بد لإحسان التربية، والإجادة فيها من وجود هذين الشرطين، علي أن تأثيرهما لا يكون مفيدًا نافعًا إلا إذا كان سلطان الأب والمربي مقترنًا بالحلم، والرفق مع الحزم، والتدبر، بحيث لا تكون هذه السلطة ممتزجة بالعنف، والاستبداد، والقسوة، والظلم، ولا بالتراخي، والإهمال، والتسامح من كل وجه. وأن تكون الطاعة التي تقود الولد إلى القيام بما يشير به الأب والمربي ناجمة عن الثقة بهما، والاحترام لهما، والاعتقاد بحسن نيتهما في ما يأمران به، لا عن رهبة وخوف من عقابهما. وغني عن البيان أن شدة التراخي تفعل فعل الظلم الشديد نفسه؛ فلذلك كان من الواجب أن تتبع في التربية خطة التوسط بين الشدة، واللين، والقسوة، والرفق، وخير الأمور أوسطها.

ويتفق كثيرًا أن سعادة الرجل تذهب إدراج الرياح لفساد تربيته الأولي بين

يدي أبيه وأمه، إما لشدة ما يقسوان عليه، بحيث يصبحان متهمين في عينيه في كل رأي لهما، فلا يطيع إلا عن خوف، وإذا أدار ظهريهما عمل بعكس إشارتهما، وأما لكثرة ما يتراخيان معه، فينمو، ويدب، ويكبر، ويشب علي هوي نفسه وصبوة خاطره.

وقد حكي أحد المحدثين السابقين عن جارين، لكل منهما ولد في سن الآخر، فكان أبو الأول مشددا في تربيته إلى حد العنف والقسوة، فلا ينهاه إلا زجرا، ولا يخاطبه إلا أمرا، ولا يبش في وجهه مرة، ولا يسمح له بأقل شيء يلتمسه، فإذا طلب منعه، وإذا امتنع أعطاه بالرغم عنه. وكان والد الثاني متناهيا في التراخي مع ابنه، بحيث كان هو الآمر الناهي النافذ الكلمة، المطاع الإشارة، وإذا قال هاتوا القمر قام أبوه يفتش عني سلم طويلة ليصعد إلى القمر فينزله.

فلما كبر الوالدان لم يكن أحدهما يفضل الآخر بشيء، بل كانا صنوين في فساد الأخلاق، وفرسي رهان في مضمار المنكرات، وسبب غم دائم لوالديهما؛ لأن الابن الجاهل كما قال سليمان الحكيم: "غيظ لأبيه، ووجع للتي ولدته" وكان سقوطهما الأدبي متساويًا، في حين أنه كان ناجمًا عن سببين مختلفين، ولا بدع، فكل ما جاوز حده جاور ضده.

وأول ما يجب أن يعني به في تربية الولد إتباع طرق ثلاثة لا بد منها، ولا مندوحة عنها، وهي العناية بتربية بدنه بحسب القوانين الصحية؛ لأن العقل السليم في الجسم السليم علي ما هو مشتهر ومعروف؛ ثم إرهاف ذهنه وترقيقه بحيث يصبح معدًا لأن ينفذه نور المعرفة والفهم، ثم تسديد خطواته في الصراط المستقيم، حتى لا تتسلط عليه الشهوات، ولا تقبض الأهواء النفسانية علي زمامه.

ومتى سار الأب والأم في تربية أبنائهم وبناتهم علي هذه الطرق الثلاثة، فإنهم لجديرون بأن يروا أولادهم يشبون علي ما يجب أن يشبوا عليه ليحوزوا كل صفات الكمال فيما بعد. لأن سلامة الجسم، وقوته وإنارة الذهن، وتنبيهه، واستقامة السيرة وصلاحها، كل ذلك إذا أحسن صنعه منذ الصغر يؤهل الغلام والفتاة لاسمى الصفات، وأكمل الأخلاق، وأتم الخصال، وأجمل الخلال.

ويري القراء أننا نكثر في هذا الفصل من ذكر الأخلاق والخصال.

ونحن إنما نعني بذلك ما كان من الصفات والأخلاق مغروزا في الفطرة، كامنًا فيها كُمون النار في أحجارها. وهي تنقسم إلى قسمين: منها البدنية، ومنها الذهنية، وكلاهما خليق بالعناية والتدبر؛ لأن إرهاف الذهن أمر واجب في تربية الأولاد بقدر ما يجب أن يعني في تقوية أجسامهم وإنمائها. وكما أن الأب يصرف جل عنايته إلى تقوية بدن ولده وحمايته من كل طارئ يؤثر علي صحته، كذلك يجب عليه أن يعمل لإرهاف ذهنه، وشحذه، وإسقاط برقع الجهل والغواية عن عينيه؛ لأن سلامة الجسم وحده لا تكفي لجعل الإنسان رجلا، بل يجب أن تكون قوة العضل مقرونة بقوة العقل، وهكذا قل عن قوة العقل فإنها لا تكتفي لذلك وحدها، إذ أيه فائدة ترجى من كبير الجسم، قوي البدن إذا كان ضعيف العقل، سخيف الرأي، وأية فائدة تنتظر من حاد الذهن، راجح العقل إذا كان هزيلاً عليلاً لا يملك قوة ولا صحة.

إذن فالعناية في كلٍ من البدن، والذهن واجبة علي قياس واحد، ويخطئ الذين يهملون أحدهما للعناية بالآخر، علي زعم أنهم متى أصلحوه انقلبوا إلى العناية بأخيه. ولعمر الحق أن تقوية البدن مع إهمال الذهن وبالعكس؛ أي تقوية الذهن مع إهمال البدن تمهيد لسبل التعاسة والشقاء، فليتدبر الوالدون والمربون هذا الأمر، ولينظروا إليه بعين البصيرة والإمعان.

وكثيرًا ما مزجنا في هذا الفصل بين أسماء الأب، والأم، والابن، والبنت، والمعلم، والمربية، ونحن لم نردف هذه الألفاظ بعضها ببعض عن عبث ولغير قصد، وإنما قصدنا بها إلى بيان حقيقة لا خلاف فيها: وهي أن الوالدين، والمعلمين سواء في مطالبة الهيئة الاجتماعية لهم فيما يختص بكل منهم من أعمال التربية، وأن الابن والبنت لكل منهما حق يعدل حق الآخر في التربية دون فرق بينهما ولا تمييز.

ولسنا نريد بهذا القول أن الفتاة يجب أن تربي تربية الغلام نفسها، كلا، فإن ذلك من شأنه أن يؤدي إلى نتيجة لا تكون محمودة في الشرق، ولا هي مما يرغب فيه عندنا، والنتيجة التي نشير إليها هي تأنيث الذكور، وتذكير الإناث. ولا يخفى ما في ذلك من الضرر علي الهيئة الاجتماعية، وما فيه من دواعي التأثير علي حالة العمران، والتقدم الشعبي.

ولا يجهل أحد علي القيام بإدارة الشئون التي تطلب منه حق قيام، وكانت المرأة امرأة تامة عارفة بحقيقة واجباتها البيتية، قادرة علي تدبير منزلها وتربية أولادها. لأنه إذا كان الرجل مطالبًا بأمور كثيرة أخصها القيام بالأعمال المؤدية إلى إيجاد المواد الكافلة بحاجات العائلة، فهكذا المرأة مطالبة بواجبات عظيمة نحو رجلها، وأولادها، والشئون المنزلية عامة.

ولرب معترض يقول أن هذه الأقوال لا تنطبق علي موضوع هذا الفصل الذي مدار البحث فيه علي التربية في البيت، وبالتالي علي تربية الصغار منذ الولادة، فالفطام، إلى نحو السنة الثامنة من عمرهم، فعلي مثل هذا الاعتراض نرد بأن التربية تبدأ مع المهد، وأن الرجل لا يكون رجلا حقيقيا، والمرأة لا تكون امرأة تؤتمن علي المنزل والأولاد إلا إذا أحسنت تربيتهما، ونُظر في أمرهما منذ ساعة الولادة، الذكر كما يجب أن يربي الذكور، والأنثى كما يليق أن تكبر

الإناث.

وويل لشعب يقلد رجاله نساءه، وويل لأمه تتشبه نساؤها برجالها، فإن ذلك يؤدي إلى ضياع الموازنة في قلب الأسرة، ومتى ضاعت موازنة العائلة فقدت موازنة الأمة كلها بحسب القاموس الطبيعي، فإن ما يطلق علي الأفراد يطلق علي الشعوب بإجمالها، والأسرة صورة الأمة ومثالها.

إذن فمن الواجب بداهة أن يعني بتربية الصغار عناية فائقة، فإن ذلك يسهل سبيل تربيتهم، وتعليمهم، وتثقيف أخلاقهم متى أزيحت عنهم التمائم، وأصبحوا يدركون ويفقهون.

ولقد رأينا العرب، بل الشرقيين عامة قد أهملوا فن التربية إهمالا تامًا، فهم يمنعون الحجّام عن معاطاة فن الطب؛ لأنه ليس من مهنته في شيء، ويبشرون التاجر بالخسارة والإفلاس إذا لم يكن حاذقًا في الحساب، والأعمال المتجرية، ولكنهم لا يعجبون لرجل يتخذ لنفسه رئاسة العائلة، وقيادة الأسرة، وتربية الأولاد، وهو لا يعرف من التربية إلا اسمها، ولا يعلم من القوانين الصحية شيئًا يؤهله لمثل هذا العمل العظيم. فلذلك رأينا أن نردف هذا الفصل الذي أجملنا فيه الكلام علي التربية في البيت إجمالا بفصول أخرى، نفصل فيها القول تفصيلا، والله من وراء النيات.